العلاقة الجدلية بين المحدود واللامحدود

اذا سألنا رجلا عاديا على قارعة الطريق كيف تتصور نفسك كانسان! ستراه يجيب دون تردد أنا انسان أملك جسدا و روحا. هذا الجواب سمعته من عشرات الناس العاديين عندما سألتهم ذلك السؤال التقليدي الممل. و اذا عدنا و سألنا الناس العاديين كيف تتصوروا أجسادكم هل هي محدودة بفوق و تحت و يمين و يسار و أمام ووراء:سيكون الجواب طبعا هي محدودة لأن كل الموجودات المادية محدودة مهما كبرت أو صغرت لأنها ضمن المكان.و اذا قلنا هل يمكن لهذا الجسد الذي نملكه أن يكون في الماضي و الحاضر و المستقبل الممتد الى لا نهاية و طبعا سيكون الجواب هذا مستحيل لأن الجسد مركب من عناصر و كل المركبات مصيرها الى التفكك مهما طال بها الزمن، و هذا يعني أن الجسد ضمن الزمان تحت احاطته فهو اذن محدود ضمن المكان والزمان يملك حجما محدودا لأن له طول و عرض و عمق و يملك وزنا محدودا و يخضع لكل قوانين الطبيعة كقانون الجاذبية والتأثر بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وهو في حركة مستمرة لأنه يحتاج دوما الى الطعام والشراب و تصريف الفضلات ويخضع للزيادة والنقصان. بكلام موجز هذا الجسد هو نتاج الطبيعة بعناصرها استقصاتها بتأثير:أفلاكها و كواكبها و تفاعلاتها.ولأنه نتاج طبيعي تعتبر سعادته في محاكاة قوانين الطبيعة التي أنتجته، و تعاسته في مخالفة هذه القوانين الطبيعية.ولذلك يجب أن تكون كل العلوم التي لها علاقة بالجسد كعلم الطب والتغذية والرياضة و ما له علاقة بصناعة الطعام والشراب و الجنس والرفاهية مستوحى من قوانين الطبيعة و متناغما معها والا سببت هذه العلوم تعاسة للجسد و ليس السعادة وكانت متامرة ضد مصلحته و ليست لخدمة مصلحته.

ولأن الجسد محدود فحاجاته يجب أن تكون محدودة و قدرته يجب أن تكون محدودة.فهل هذا ينطبق على نمطية الاقتصاد الاستهلاكي الذي جررنا اليه طوعا أو كرها؟ والذي تتلخص فلسفته بأن الانسان مجرد حيوان مستهلك يجب اغراءه بالحق وبالباطل لاستهلاك أي سلعة تصنع و تدر ربحا لصانعيها سواء خدمت الانسان براحته و سعادته أو جرته الى الألم والشقاء.نحن نسأل أنفسنا الان هل المأكولات المعلبة بمواد حافظة تخدم صحة الجسد أم لا؟ هل المهيجات الجنسية تخدم تلك الصحة أم لا؟هل ملبوسات البوليستر تخدم صحة هذا الجسد المسكين أم لا؟هنا علينا أن نعود الى نقطة البدء فاذا كان الجسد نتاج طبيعي فهل هذه المنتجات تتناغم مع قوانين الطبيعة لتغدو قادرة على خدمة أجسادنا؟

و قدرة هذا الجسد على الاستهلاك اليست قدرة محدودة أيضا ؟ فاذا أطعمناه أكثر من حاجته أصيب بالتخمة التي هي باب الأمراض والألام والقبح. و اذا أنقصنا من كمية طعامه أصيب بالهزال و هو باب الانحطاط والانكسار.أما اذا تفننا في اغراء الجسد بشرب الكحول المصنعة كيميائيا والمرطبات الغازية بكميات كبيرة و هو المسكين محدود امكانيات التحمل فماذا يصيبه غير الألم والعبث بمقوماته؟ أنا لا أريد هنا أن

أعرج على موضوع المخدرات و كيف أن مافيا المخدرات تعتبر أكبر مافيا في العالم و أنها تتحكم بسيولة نقدية تفوق في بعض الاحيان سيولة أموال البترول أو مافيا الدواء الفاسد الذي يدر مليارات الدولارات و يهوي بملايين الناس المساكين الى هاوية العذاب والتهدم.
هذا الجسد قدرته على الاستهلاك محدودة فلا تغروه بما يخالف طبيعته، و قدرته على الاحتمال محدودة فلا تحملوه أوزارا لا طاقة له بها.أما فيما يخص الروح أو النفس فقد عرفها أرسطو بأنها جوهر حي شفاف يقبل العلم كما يقبل الجهل خالد غير قابل للفناء. و هذا التعريف بالطبع ينطبق على النفس العاقلة فقط لأن ما يسمى بالنفس الحيوانية ليست الا نتاج الدورة الدموية التي تفنى بفناء الجسد. النفس العاقلة اللامحدودة فينا التي تمارس علمها وعملها من خلال جوارح الجسد المحدود وبالتالي يصبح المحدود قائما باللامحدود واللامحدود ممارسا ذاته بالمحدود.
ولأن النفس جوهر خالد غير قابل للفناء ولأنها لا تستطيع أن تمارس علمها و عملها الا من خلال الات الجسد و جوارحه.أصبح بديهيا أن تنتقل هذه النفس بموت جسدها الى جسد اخر ولد لتوه لتحل فيه و تمارس ذاتها من خلاله. معنى ذلك أن هذا اللامحدود النفسي لا يستطيع أن يفارق المحدود الجسدي طرفة عين. وبالتالي لا يمكن تصور ثنائية بين المحدود واللامحدود و كأنهما شيئان مستقلان عن بعضهما و من طبائع مختلفة. بل هما كلا واحدا غير قابل للانفصام. ولذلك كانت العلاقة بينهما جدلية في أعلى مراتبها.فاذا استطاعت جوارح الجسد أن تجذب النفس العاقلة الى طبائعها و تسخرها لخدمة أغراضها أصبحت النفس العاقلة خادمة لطبائع الجسد و تابعة لها و اكتسبت صفة المحدودية بمحدوديته.والعكس اذا استطاعت طبائع النفس العاقلة أن تجذب طبائع الجسد اليها و تسخرها لخدمة أغراضها أصبح الجسد خادما للنفس(وهذا موقعه الحقيقي) و ابتدأ ينسلخ من محدوديته لصالح لا محدودية النفس.سأضرب مثلا على ذلك بسيط و مقنع.
الحرارة طبع من طبائع جسدنا و كذلك هي طبع من طبائع نفسنا العاقلة.
اذا استطاعت حرارة النفس العاقلة أن تجذب حرارة الجسد الغريزية اليها و تسخرها لأغراضها استطاعت الحرارة تلك أن تغدو شرارة خلق وابداع في النفس تتجسد قصيدة أو رواية أو لوحة فنية أو نغما موسيقيا أو اختراعا ماديا أو أن تغدو انجذابا الى الله و تواصلا مع عقله الكلي على شكل عشق صوفي أو تأمل فلسفي. أما اذا استطاعت حرارة الجسد أن تجذب حرارة النفس العاقلة اليها و تسخرها لخدمة أغراضها عندها تغدو الحرارة طاقة شبق جنسي أو غضب جامح أو تعطش الى سفك الدماء والتعدي على الاخرين. انه اللامحدود النفسي الذي يستطيع في أعلى مراحل كماله أن يتواصل مع أصله الالهي في لحظات سماها الصوفيون اللمعات. عندها تغدو النفس هي المحيطة بالزمان والمكان و ليس العكس. وهي المتحكمة بحركة الزمان والمكان وليس العكس. عندها تستطيع أن تستشرف المستقبل و كأنه حاضر و أن تستقرىء الماضي و كأنه حاضر أيضا. تستطيع أن تتحكم بقوانين الطبيعة و تجذب الجسد اليها ليخرج بدوره من الخضوع لقوانين الطبيعة فيمشي على الجمر ولا يحترق و يمشي فوق الماء ولا يغرق و

يمتنع عن الطعام أياما ولا يجوع. كل ذلك التواصل بين النفس العاقلة و أصلها الالهي يحصل في لمعات ثم يرتد الانسان الى صلصال آدميته من جديد فيعود المحدود الجسدي الى مكانه الطبيعي خاضعا لقوانين الطبيعة و تعود النفس الى مكانها الطبيعي الخاضعة لقوانين العقل.سأضرب مثلا اخر على علاقة المحدود الجسدي باللامحدود النفسي.
الجسد والنفس في حركة دائمة لا تسكن طرفة عين أي في سيلان دائم لا يثبت على حالة ساكنة طرفة عين. ولذلك كان الجسد بحاجة دائمة الى طلب الغذاء طعاما و شرابا و كذلك النفس بحاجة دائمة الى طلب الغذاء علما و تواصلا مع اصلها الالهي.اذا انجذبت طبائع النفس العاقلة الى طبائع الجسد فعلّت طبائع الجسد و زادتها قوة في نهمها و شهوانيتها فيأكل الجسد ولا يشبع و يشرب ولا يرتوي و يمارس الجنس فيزداد شبقا. أما اذا انجذبت طبائع الجسد الى طبائع النفس و تجوهرت بجوهرها عندها نرى الجسد يكتفي بكسرة خبز و جرعة ماء و تأمل الجمال المطلق كما فعل االحلاج عندما تصوف في البيت الحرام في مكة ودون أن يقلل ذلك من قوة الجسد في شيء و نرى الجسد لا يعود راغبا في ممارسة الجنس الا بغية الانجاب للمحافظة على بقاء النوع عندها تنصقل الغرائز و تتعفف حتى تصل الى حدود القداسة و لهذا قد نرى وفي نفس الشخص قبل انقياد طبائع جسده الى طبائع نفسه و بعد انقياد طبائع جسده الى طبائع نفسه أقصى التطرف في الانتقال من أقصى اليمين الى أقصى اليسار كما حصل لرابعة العدوية التي كانت تمارس حياتها في أقصى درجات الاباحة عندما كانت طبائع نفسها خادمة لطبائع جسدها فاذا بها بعد تصوفها تنتقل الى أقصى درجات التعفف والاستغراق في الحب الافلاطوني والتواصل مع الاصل الالهي. هذا ما نراه أيضا في حياة بوذا قبل أن يستنير و بعد أن استنار. كل هذا يجعلني على يقين من أن سعادة النفس هي في تواصلها مع أصلها الالهي عبر خليفة الله العقل الكلي الذي يتجسد على أرض الواقع بكلمة اسمها القوانين (قوانين الطبيعة و قوانين المنطق) انه المحدود تحت مظلة اللامحدود. كما الحرف تحت مظلة المعنى والناسوت تحت مظلة اللاهوت.

كمال يوسف سري الدين